الإمارة الشهابية

في ظل الأمير بشير الثاني

ليندا طنوس رزق*

تولّت الأسرة الشهابيّة حكم إمارة جبل لبنان طيلة الفترة الواقعة بين سنة 1697 وسنة 1841، وقد خلفت العائلة المعنية التي انقرضت بوفاة أحمد المعني آخر أمرائها، أما حكم الشهابيين فانتهى بالأمير بشير الثالث. وبعده أخذ مصير جبل لبنان يتأرجح بين أنظمة حكم متباينة بدءًا بالقائمقاميتين، مرورًا بالمتصرّفية فالإنتداب الفرنسي، إلى أن انتهى الأمر بنيل الإستقلال ضمن الحدود الحاضرة المعترف بها دوليًا سنة 1943.

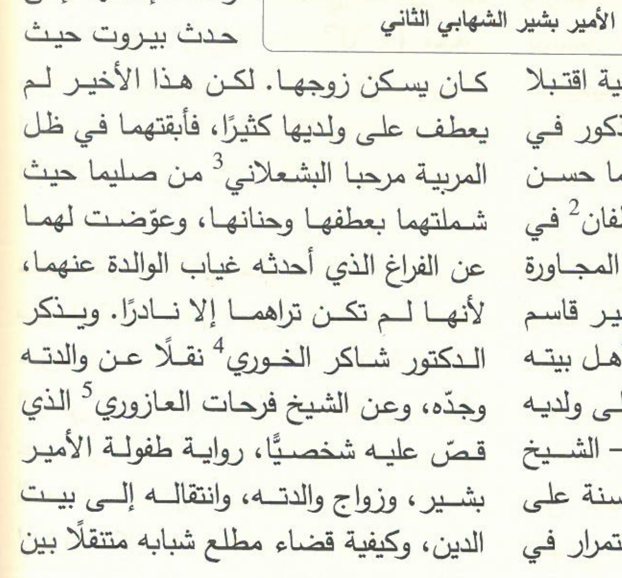
اتّخذ الأمراء الشهابيون بلدة دير القمر في الشوف مقرًا رسميًّا لهم، ولم تعرف إمارتهم حدودًا ثابتة نهائية، إنما خضعت عدّة مرات للتعديل والتبديل حسب شخصية الأمير الحاكم، ومدى تكيّفه مع الظروف الداخلية والخارجية، ومطامع الولاة العثمانيين والأمراء المحليين. فالأمير بشير الشهابي الأول ابن أخت الأمير أحمد المعني، حكم بالوصاية على الأمير حيدر شهاب ابن بنت الأمير المعني المذكور مدّة عشر سنوات (1697 – 1707) وجعل مقرّه دير القمر بعد انتقاله من راشيا، وذلك ليثبت شرعية انتقال حكم الإمارة المعنية إلى الشهابيين والتي كانت تلك البلدة الشوفية عاصمة لها، ثم خلفه في الحكم الأمير حيدر شهاب الذي حكم مباشرةً بعد بلوغه سن الرشد. فنظّم أمور بلاده بعد معركة عين دارا سنة 1711، وأتاح لزعامة الحزب القيسي المجالات الواسعة للظهور. وقد عهد إلى زعماء الأسر الذين ناصروه في المعركة المذكورة بحكم المناطق التابعة لإمارته، كل حسب أهميّته ومكانته. وبعد وفاته سنة 1732 تسلّم مقدرات الإمارة اللبنانية الأمير ملحم شهاب لمدة 22 سنة (1732 – 1754). وعام 1749 دخلت بيروت ضمن نطاق إمارته أيضًا، وظلّت هذه المدينة في أيدي الشهابيين حتى ظهور زعامة أحمد باشا الجزار سنة 1780. وبحلول سنة 1754 تنازل ملحم عن الحكم إلى أخويه الأميرين أحمد ومنصور، بينما انصرف هو شخصيًّا إلى حياة الزهد، ودراسة الفقه، ومعاشرة كبار علماء المسلمين، في حين اعتنق ولداه الديانة المسيحية، وقد سيّر أخواه شؤون الحكم في أجواء من التفاهم حينًا، وفي ظلّ المنازعات والخلافات أحيانًا أخرى. وظلّت الأحوال على هذا المنوال من التوتّر والتقلّب بينهما حتى بلغ الأمير يوسف بن ملحم سن الرشد، فتنازل له عمّه منصور عن الحكم سنة 1770 بعد أن كان قد تفرّد به عن أخيه أحمد.

استمر يوسف في إدارة شؤون البلاد حتى عام 1788 حيث خلفه الأمير بشير الشهابي الثاني.

– الأمير بشير من طفولته حتى تسلّمه الحكم

• **طفولته وشبابه**

ولد الأمير بشير الشهابي الثاني في السادس من شهر كانون الثاني سنة 1767، وتعمّد حسب شرائع الطائفة المارونية شأنه في ذلك شأن أخيه الأمير حسن الذي ولد سنة 1765، وذلك لأن والده الأمير قاسم كان قد استدعى إليه مطران بيروت الماروني يوسف اسطفان[1]، وطلب منه أن يعلّمه مع زوجته السيدة أسماء ابنة عمّه الأمير منصور مبادئ الدين المسيحي. وبعد أن تعمّقا في فهم المعتقدات المسيحية اقتبلا سرّ العماد على يد الأسقف المذكور في أواخر سنة 1764. أما ولداهما حسن وبشير، فقد عمّدهما المطران اسطفان[2] في كنيسة سيدة الأبراج في غوير المجاورة لقصر والدهما. وبعدما توفي الأمير قاسم في نيسان 1767 وترك جميع أهل بيته نصارى، تولّى شؤون الوصاية على ولديه – بناءً على رغبته المسبقة – الشيخ منصور الدحداح. لكن بعد مرور سنة على ذلك، اعتذر هذا الوصي عن الاستمرار في مهمّته، فانتقلت قضية الوصاية عليهما إلى الشيخ بطرس نوفل الخازن الذي انصرف إلى الاعتناء بشؤون الأميرين القاصرين بكل جدّ وإخلاص. وقد أشاد البطريرك بولس مسعد بإخلاص هذا الشيخ الخازني في مجال تأدية مهمّته على أكمل وجه.



الأمير بشير الشهابي الثاني

بعثت تلك المعاملة الممتازة للأميرين من قبل الوصي عليهما، الثقة والإطمئنان في نفس والدتهما، وأيقنت أن ولديها في عهدة يد أمينة، ما دفعها إلى التصميم على الزواج، فاقترنت بابن عمّها الأمير سيد أحمد شهاب، ونقلت إقامتها إلى حدث بيروت حيث كان يسكن زوجها. لكن هذا الأخير لم يعطف على ولديها كثيرًا، فأبقتهما في ظل المربية مرحبا البشعلاني[3] من صليما حيث شملتهما بعطفها وحنانها، وعوّضت لهما عن الفراغ الذي أحدثه غياب الوالدة عنهما، لأنها لم تكن تراهما إلا نادرًا. ويذكر الدكتور شاكر الخوري[4] نقلًا عن والدته وجدّه، وعن الشيخ فرحات العازوري[5] الذي قصّ عليه شخصيًّا، رواية طفولة الأمير بشير، وزواج والدته، وانتقاله إلى بيت الدين، وكيفية قضاء مطلع شبابه متنقلًا بين

بيت الدين والبرج والحدث. كما يتطرّق إلى ذهاب الأمير إلى دير القمر ثم عودته إلى بيت الدين بعد أن عجز عن استئجار بيت في دير القمر.

توجّه الأمير بشير إلى دير مار أنطونيوس في بلدة سير – قضاء عاليه، حيث كان يترأسه الأب سمعان الخازن الذي أجرى له استقبالًا حافلًا، وبذل كل جهوده لتأمين جميع مظاهر الراحة والسعادة لضيفه، خاصة أن الشيخ بطرس الخازن الوصي على الأمير يرتبط بصلة قرابة وثيقة بالراهب المذكور، وقد عيّن لبشير قيّمًا على تربيته الروحية والجسدية يدعى الأخ أغناطيوس بليبل، وقد نشأت بينهما مودّة صافية قامت على الإعجاب والتقدير المتبادلين، واستمرّت مدى حياتهما.

لقي الأمير معاملة لائقة من قبل رئيس الدير ورهبانه، وانصرف الأخ أغناطيوس في ظل اندفاع للعمل، على إحاطة ضيفه وصديقه الجديد، بكل عناية ورعاية مسؤولة، والسهر على أخلاقه، وإعداد طعامه، وتجهيز ملابسه، بالإضافة إلى مرافقته له في رحلاته ونزهاته وتمضية أوقات فراغه. ويذكر بعض رهبان[6] الدير أن الأخ اغناطيوس وضيفه كانا يشاهدان دائمًا طوال أيام ذلك الصيف في اللعب والتنزّه على عين الدير المذكور بين الحدائق والكروم حيث كانا يصطادان العصافير بالدبق في بعض الأحيان. وبعد انقضاء الصيف، واشتداد البرد ودّع بشير رئيس الدير ورهبانه، وقدّم لهم تعويضًا على أتعابهم، وعاد إلى غزير عقب وداع حار لمرشده وصديقه الأخ اغناطيوس. وبعد انقضاء فترة قصيرة انتقل الراهب إلى دير كفيفان، وتوجّه الأمير الشاب إلى دير القمر[7].

• **انفتاح دروب التقدم أمام بشير**

لم يكن بشير غنيًّا بدليل أن محتويات المنزل الذي تركه أبوه قاسم كانت زهيدة جدًا، وحينما قرّر أن يتقاسم تلك الثروة مع أخيه حسن، لم تبلغ حصته أكثر من حمل جمل، وقد شملت سريرًا وبعض الأواني والحوائج. ومن هذا الرصيد المتواضع قصد ينشد الشهرة في دير القمر عند الأمير يوسف.

أعجب الأمير يوسف بشخصية نسيبه بشير وقبله في خدمته، وصار يعهد إليه بمهام كثيرة فينفذها على أكمل وجه. ولم يمضِ وقت طويل حتى كلفه عمّه يوسف بمهمة خطيرة ما لبث أن فتحت له باب الشهرة على مصراعيه؛ لقد عهد إليه بالتوجه إلى حاصبيا لإنهاء النزاع الخطير الذي نشب هناك نتيجة مقتل الأمير بشير نجم شهاب، فقبل المهمة فورًا، وقصد دار الفقيد. وهناك تعرّف إلى أرملته الشابة الجميلة، وحدث بينهما إعجاب متبادل، وما لبثت تلك الأميرة الشهابية أن عرضت عليه موضوع الزواج، فوافق فورًا.

• **الأمير بشير قبيل تسلمه الحكم**

تابع الأمير طريقه الصاعدة إلى المجد، وتوسعت صداقاته وتكاثر عارفوه ومحبّوه، فأخذ طموحه ينمو ويتزايد، ونال حلمه بالوصول إلى الحكم يراوده. غير ان تحقيق هذا الحلم يتطلب اجماع اللبنانيين عليه،

كما يفرض رضى المراجع العليا في السلطنة وموافقتها على تعيينه بديلًا للأمير يوسف. ومن حسن حظ الأمير أن سكان الجبل وخاصة الدروز، قد تضايقوا من حكم أميرهم وملأت نفوسهم نقمة عارمة ضده. وصاروا يتحينون الفرص للإنتفاضة عليه والتخلص من حكمه. وفي أحد الأيام قال "أبو علي" للأمير أن شيخ العقل القاطن في الخلوات الزنبقية بجوار كفرنبرخ يودّ أن يجتمع به ليتعرف إليه، وليبحث معه في أمور سرية. لذلك فإنه يتمنى عليه الاّ يكون اللقاء علنيًا كي لا تثار الشكوك حوله، واقترح أن يتم الاجتماع خلال احدى رحلات الصيد. وبعد أيام قصد الأمير بشير شيخ العقل المدعو حسين ماضي أبو عز الدين، فما كان من هذا الأخير إلا أن صرّح لضيفه بأن الدروز أصبحوا على درجة كبيرة من الاستياء نتيجة الأوضاع المتردية، وقد بدأوا يفتشون عن الأمير البديل، وهو شخصيًّا قد وجد في شخص الأمير الصفات العالية المثيرة للإعجاب التي تؤهله لأن يكون الحاكم الجديد على الجبل.

وافق الأمير على ما عرضه شيخ العقل، وأعرب عن استعداده لقبول المهمة، لكنه احتجّ بعجزه عن تأمين الأموال اللازمة لهذه الغاية، فوعده شيخ العقل خيرًا، وتوجه فورًا إلى مقر الشيخ قاسم جنبلاط في المختارة ليبحث معه في ما حصل خلال الاحتماع المذكور. فوافق هذا الأخير مبدئيًّا على فكرة ترشيح لخلافة عمه، إلا أنه اشترط أن يعقد لقاء معه للتعرف إليه مباشرة وتبيان مدى قدرته على تسلم أعباء المسؤولية الخطيرة. وبالفعل، عُقد اجتماع بين الأمير والشيخ الجنبلاطي أعلن خلاله هذا الأخير موافقته على تلك القضية المهمة، وقدّم للأمير مبلغ خمسة آلاف قرش، متعهدًا له بتأمين كل ما يلزمه وطلب إليه أن يبدأ بتحضير الرجال والأنصار ليكونوا جاهزين عندما تحين ساعة الصفر.

– **محاولة الاغتيال**

انتقلت أخبار هذه اللقاءات والاجتماعات بالتواتر، إلى الأمير يوسف الذي استدعى إليه الأمير حسن شقيق بشير ليستوضحه حقيقة ما يجري، ووجّه بواسطته تهديدًا مبطنًا إلى بشير يحذّره من مغبة ما يقوم به من نشاطات مختلفة ضد سيّده. فما كان من فارس ناصيف من دير القمر إلا أن أبلغ بشيرًا بأن أخاه سوف يحضر لاغتياله ارضاءً للأمير يوسف، فجلس الأمير على مصطبة منزله حاملًا سيفه وبندقيته خوفًا من غدر شقيقه به.

لم يمضِ وقت طويل حتى أطل الأمير حسن من بعيد، فأيقن بشير أن قضية اغتياله أمر مؤكد. فما كان منه إلا أن هدّد أخاه ومنعه من التقدم إليه، وأرغمه على مغادرة بيت الدين إلى دير القمر ناقلا حقيقة ما جرى إلى عمّه الأمير يوسف. غير أن سعد الخوري مدبر الأمير يوسف منعه من قول الحقيقة، وطلب أن يصرّح بأنه قابل أخاه الذي أخبره بعجزه عن القيام بمثل هذه التصرّفات نتيجة أوضاعه المالية السيئة، ونصح الأمير يوسف بضرورة توظيف بشير عنده اتقاءً لشره. فقبل نصحه،

وأرسل إلى نسيبه خادمًا وفرسًا ليحضر على الدير وذلك تدليلًا لإدخاله في خدمته. إلا أن بشيرًا رفض العرض بحجة أن الفرس المرسلة إليه لا تليق بمقامه. وعاد السائس إلى الأمير يوسف لينقل له حصيلة ما حدث معه، فما كان من سعد الخوري إلا أن وقف إلى جانب بشير، وقال للأمير يوسف إن الأمير بشير محقّ في رفضه، لأن الفرس التي أرسلت إليه ليست أفضل الخيول الموجودة في القصر، وأن حاكم الجبل يملك أحسن منها بكثير، فرضخ الأمير يوسف للأمر الواقع على مضض، وأرسل إلى نسيبه بشير حصانًا نجيبًا مجهّزًا بأفضل العدد. فما كان من بشير إلا أن قبل العرض الجديد فورًا، وذهب إلى قصر دير القمر، وتوظّف عند أمير الجبل[8].

• **تنازل الأمير يوسف عن الحكم**

أذعن الأمير يوسف للضغوط المختلفة من الداخل والخارج، وقرر التنازل عن الحكم وأرسل بشيرًا من قبله إلى الجزّار ليطلب الإمارة لنفسه. فأجابه الأمير الشاب[9]: إني أخاف أن أذهب إلى عكا ابنك وأعود ابنًا للجزار، فأجفل يوسف[10] من هذا الجواب، لكنه تظاهر باللامبالاة، وأجابه بابتسامة صفراء: "على سلامتك يا ولدي مهما عملت، يأكلها السبع ولا يأكلها الضبع"، وأصبح هذ الجواب من الأقوال المأثورة عند الناس. وقد ارتاح آل جنبلاط لهذا التنازل لأنهم تخلّصوا من خصم عنيد أقلق راحتهم وضيّق عليهم، وحدّ كثيرًا من زعامتهم، وتوسموا خيرًا بالأمير الجديد، غير ان الأمير يوسف لم يقطع الأمل من العودة إلى حكم الإمارة، ظنًا منه أن هذا الأمير الطري العود والقليل الخبرة لن يتمكّن من ضبط الأمور، وستعمّ الفوضى إمارته مما يؤدّي به إلى الإعتزال، فيحلّ محلّه من جديد، بعد أن يكون قد تمكّن من إرضاء الجزّار بمختلف السبل.

لمّا اشتدت الفتنة بين الجزار والأمير يوسف جمع هذا الأخير أعيان البلاد ورغب إليهم في أن يختاروا أميرًا عليهم، فقرّ الرأي على انتخاب بشير[11] الذي جمع عليه الدروز والمسيحيون، وقد وافق الجزار حالًا على هذا الاختيار، لأنه أزاح من أمامه أميرًا قويًّا لم يخضع دائمًا لمشيئته كما أراد، ولم يلبِ دائمًا ما كان يطلب منه، هذا في الوقت الذي حمل فيه بشير معه إلى والي عكا ما يرضيه من الأموال. وعندما سلّمه الجزّار خلفة الإمارة، زوّده بأمر يقضي بضرورة التخلّص من الأمير يوسف[12]، فما كان من بشير قبل أن يصل إلى الجبل، إلا أن أوعز إلى سلفه بضرورة مغادرة أراضي الجبل تلافيًا لحدوث مجابهة تفرض عليهما دون أن يكون له فيها إرادة. وعند وصول الأمير بشير إلى صيدا قصد دير القمر ووصلها في موكب حافل، وتسابق أعيان البلاد لاستقباله وللترحيب به في حين كان الأمير يوسف قد غادرها إلى المتن. وعلى الرغم من ذلك ظلّ بشير حذرًا من خصومه[13].

• **مميزات الأمير**

تميّز الأمير بشير عن أقرانه من الولاة والأمراء بشخصيته الفذّة، وأهم ما عرف عنه أنه كان صاحب بنية قوية ولحية

أضفت عليه الوقار، وشاربين طويلين. وقد درج على عادة لبس قفطان من الحرير، وعباءة طويلة، لكنه ترك هذه الأخيرة في مطلع شيخوخته، كما صار يلبس على رأسه طربوشًا مغربيًّا في هذه المرحلة من عمره، واعتاد أيضًا على أن يدخّن في شبق كبير مع الاحتفاظ دائمًا بفدّارته إلى جانبه. وقد اشتهر كذلك بصوته الجهوري الذي يرهب سامعه إذا ما تكلّم بلهجة غاضبة. وقد أورد الشاعر الفرنسي لامرتين (Lamartine) وصفًا لشخصية الأمير الخارجية جاء فيه: "هو شيخ جميل الطلعة، ذو عينين برّاقتين، وتلوح عليه سيماء الراحة والنشاط، إنه ذو لحية خطّها الشيب ومسترسلة على صدره كان يرتدي قفازًا أبيض يشدّه زنّار من الكشمير ويحمل فيه خنجرًا كبيرًا زهر مقبضه بين ثنايا الغنباز، تزيّنه قبضة مرصّعة بالحجارة الكريمة وهو بحجم البرتقالة"[14].

لقد وصف Perrier أحد أعضاء مجلس قيادة ابراهيم باشا الأمير؛ فشبهه ببطريك جليل ذي لحية فضية، وقامة طويلة منتصبة وفخورة، حاجباه رماديان سميكان وعيناه غارقتان في وجهه وجبهته عالية نافرة تظهر عليها خطوط عريضة وعميقة، ويداه صغيرتان ولا تنسجمان مع ضخامة جسمه.

وقد تطرق مؤرخ آخر إلى هذا الموضوع فأشار إلى بنيته القوية وبصره الثاقب، ومنكبيه العريضين، وصوته الجهوري الذي قلّما كان يتحمل شخص أن يسمعه ولا سيما عندما يكون غاضبًا.

- الأمير بشير الحاكم: حدود الإمارة الشهابية

لم تكن للإمارة المعنية حدود ثابتة، وإنما كانت تتسع وتضيق حسب قوة الأمير الحاكم والظروف الاجتماعية والسياسية والعسكرية التي يوجد فيها. فقد انحصرت بعض الأحيان في الشوف وبعض مناطق قليلة من الجبل فقط، بينما امتدت في فترات معينة من حلب إلى مصر كما حصل في عهد فخر الدين الثاني مثلًا. ولقد نعم لبنان منذ الفتح العثماني بنظام داخلي خاص، يقضي بتوحيد الإمارة اللبنانية في شخص أمير وطني ينتمي إلى الأسرة المعنية، ثم أصبح ينتمي إلى الأسرة الشهابية في ما بعد. وقد شملت الإمارة اللبنانية بالإضافة إلى الشوف وبعض أرجاء الجبل، مناطق معينة من ايالات صيدا وطرابلس ودمشق دعيت معاملات[15].

- **تسلم الأمير بشير للحكم[16]**

لقد مرّ كيف أكره الأمير يوسف على اعتزال الحكم مما أفسح المجال للجزّار ليعين مكانه الأمير بشير الثاني الذي تسلم الحكم فعليًّا في أوائل صيف 1789 (24 حزيران أو 23 تموز) وقد اتخذ دير القمر عاصمة له ودعي "أمير الدروز".

لم يدر في خلد الجزّار طاغية عكا، أن هذا الأمير الفتى، سيتمكن من حكم تلك الإمارة التي تمزقها الحزبيات والزعامات المتضاربة، بالإضافة إلى كثرة الطامعين بتسلم زمامها. تمامًا كما اعتقد الأمير يوسف. غير ان نظرة كل من الإثنين جاءت خاطئة، وبالتالي فقد لمع نجم بشير

كأعظم أمير من أمراء الأسرة الشهابية التي حكمت جبل لبنان حوالي قرن ونصف من الزمن تقريبًا. لكن الأمير بشير لم يتمكن من ترسيخ أقدامه في الحكم إلا سنة 1790 بعد أن أغرى الجزّار وأقنعه بضرورة اعدام الأمير يوسف شنقًا لأنه ظل يقلب الأعداء عليه.

لم يكن القضاء على يوسف خاتمة مأساة الأمير بشير مع الجزّار والي عكا، لن هذا الأخير أخذ يلجأ إلى بعض الأمراء الشهابيين لاغرائهم بحكم جبل لبنان.

اعتمد الأمير بشير في حكمه مبدأ السلطة المركزية، وقد عهد إلى أولاده وأنسبائه بمساعدته في إدارة البلاد بعد أن صعب عليه أن يضبط شؤون رعيته. وأن يراقب عن كثب تصرّفات رجال الإقطاع؛ لذا عيّن الأمير عبدالله ابن شقيقه حسن نائبًا عنه في كسروان، وأوكل إلى ابنه قاسم أعمال بلاد جبيل، وكلّف ابنه خليلًا بشؤون البقاع، بينما استبقى ابنه أمينًا إلى جانبه ليعاونه في الأمور المهمة، وقد أنابه مكانه في كثير من الأحيان عندما كان يضطر إلى مغادرة لبنان، كما كلّفه في كثير من الأحيان ببعض المهمات الخارجية - ويمكن أن نقسم حكم الأمير إلى أربعة أقسام أو مراحل:

- المرحلة الأولى: 1788 - 1804

لم يكد الأمير[17] يتسلّم مقاليد الحكم حتى بدأت تعصف في وجهه رياح الهموم والمصاعب، وقد لجأ إلى مجابهة العراقيل التي تواجهه بمختلف السبل فاستخدم القوة العسكرية حينًا، واسترضاء الجزّار بالمال حينًا آخر. وحاول زرع الخلافات والفتن بين خصومه المحليين ليلهيهم عن التآمر ضدّه. وقد أبعد الأمير عن الحكم خلال تلك الفترة - كما ذكرنا - ثلاث مرات؛ ففي المرة الأولى (1791 -1793) حكم مكانه الأميران قعدان وحيدر الشهابيان. وفي المرة الثانية (1794-1795) تولى الحكم بدلا منه أولاد الأمير يوسف: حسين، سعد الدين وسليم. أما فترة النفي الأهم فكانت في المرة الثالثة[18]، وقد تولى السلطة مكانه الأمراء المذكورون، أما في الستة أشهر الأخيرة من فترة النفي هذه فحكم خلالها الأمير عباس أسعد شهاب. وقد نفي الأمير هذه المرة لأنه وقف موقفًا حياديًّا بين الجزّار ونابليون (Napoléon Bonaparte) عندما حاول هذا الأخير احتلال عكا مقر الجزّار الذي طلب من بشير الوقوف إلى جانبه، لكنه لم يلق منه حماسة في تلبية رغبته. غير أن النتيجة أسفرت عن فشل الفرنسيين وفوز الجزّار، مما دفع بهذا الأخير إلى الإنتقام من أمير لبنان الذي فرّ إلى حوران، ثم قصد طرابلس فمصر حيث تدخل القنصل الإنكليزي سدني سميث (Sydney Smith) لمصلحته لدى الصدر الاعظم. غير ان الأمير لم يسترح نهائيًا إلاّ بعد موت الجزّار 1804.

- المرحلة الثانية: 1804-1822

أحسّ الأمير بالراحة بعد موت الجزّار خاصة بعد المصالحة التي أجراها مع أبناء عمّه الأمير يوسف ومدبرهم الشيخ جرجس باز - وانصرف إلى حياة الاستقرار، والاهتمام بشؤون العمران بعد إطلاق ولده

قاسم من سجن عكا. وفي سنة 1806 حضرت إليه خلع الإلتزام على حكم جبل الدروز من سليمان باشا حسب الأصول المتبعة في تلك الأيام. وقد بلغ رضا الوالي المذكور على بشير سنة 1810 حدّه الأقصى، فأنعم عليه بأن يتولى حكم جبل الدروز مدى الحياة، وأرسل إليه الفرامانات التي تؤكد ذلك[19].

غير أن زعامة الأمير[20] بدأت تتلاشى اعتبارًا من سنة 1819 عندما تولّى عبدالله باشا شؤون ولاية عكا، وأخذ يرهق بشيرًا بالضرائب بغية إضعافه وتغذية مشاعر النقمة ضده تمهيدًا للقضاء عليه نهائيًا، وقد شعر حاكم الجبل بحراجة الموقف وأضحى في حيرة من أمره، ذلك أنه إذا تمكن من إرضاء الوالي فإنه سيغضب الشعب حتمًا والعكس صحيح أيضًا، فآثر أن يمتنع عن تلبية طلب عبدالله باشا تجنبًا لحصول حركات تمرد وعصيان ضده. فما كان من الوالي إلا أن أمر رجاله باعتقال جميع اللبنانيين من رعايا الأمير الموجودين في صيدا وبيروت. وقد بلغ عدد الأسرى منهم 170 شخصًا، فاضطر بشير الى الرضوخ للأمر الواقع، وأرسل جباته لجمع الأموال المطلوبة بتأمين الافراج عن المعتقلين. عند ذلك عقد الزعماء والوجهاء مؤتمرًا شعبيًا في انطلياس سنة 1820 دعي باسم: "عامية انطلياس"[21]، وقرر المجتمعون عدم دفع أية ضريبة جديدة. وقد تضامن معهم في ما بعد، أهالي بلاد جبيل وعقدوا عامية مماثلة في بلدة لحفد، وقرروا الإمتناع عن دفع أي قرش زيادة عما يتوجب عليهم. وأيّدهم أيضًا في موقفهم هذا بعض أهالي كسروان وجبة بشري.

• نفي الأمير الى مصر

وصل الأمير الى مصر في أيلول 1822، وأقام في مصر بالقرب من نهر النيل عند بني يوسف. فحضر إبراهيم باشا وقابله لمدة ساعتين وانصرف. ثم كتب الأمير بشير إلى محمد علي طالبًا منه موعدًا لمقابلته فوافق. وبالفعل فقد حضر محمد علي بعد حوالي شهر من الأسكندرية إلى قصر شبرا واستقبله مع أولاده ومرافقيه، واتفق الحاكمان على خطة[22] عمل مستقبلية للتخلص من نير السلطنة.

وبعد فترة قصيرة وجّه بشير اعلامًا إلى جميع أكابر الدروز يعلمهم بموعد عودته التي تمت في شهر أيار 1823 حيث استقبل بمعالم الزينة والفرح والابتهاج، وقد حضر جميع وجوه البلاد لاستقباله والترحيب بقدومه سالمًا بمن فيهم الشيخ بشير جنبلاط الذي شعر بغضب حاكم الجبل عليه نظرًا لتخلّيه عن صداقته معه، وتأييده للأمير عباس أسعد شهاب الذي حكم بدلًا منه، وبدأ بشير الشهابي يعدّ العدة لإعادة ترسيخ سلطته من جديد على مختلف أرجاء إمارته.

– المرحلة الثالثة: 1823 –1831

حاول الأمير بعد عودته من مصر أن يرسّخ دعائم حكمه على حساب خصومه من الشهابيين وغيرهم. وأبرز خصم له كان الشيخ بشير جنبلاط، فأخذ يسعى بكل الوسائل لارهاقه بالضرائب تمهيدًا لاستدراجه إلى معركة للقضاء عليه نهائيًا.

وقد حاول جنبلاط أن يتجنب المواجهة، فلم يفلح لكن الأمير بقي مصممًا على التخلص منه. فاضطر الشيخ إلى انشاء تحالف درزي ضمّ بعض الشهابيين الناقمين على بشير، والليدي هستر ستانهوب (Lady Hester Lucy Stanhope). وبعد أن جرت عدة معارك في المختارة والسمقانية وبعقلين، هزم جنبلاط وهرب إلى الشام حيث ألقي القبض عليه، وأرسل الى عكا حيث أعدم هناك مع رفيقه الشيخ أمين العماد سنة 1825، كما ألقي القبض على بعض الشهابيين المناوئين وسجنوا لدى بشير.

تابع الأمير بشير[23] نشاطاته لترسيخ زعامته على أسس متينة، إلا أن سلطته على بلاده، أصيبت بنكسة قوية عندما قرر محمد علي باشا تنفيذ مشروعه التوسعي لاحتلال سوريا وفلسطين والاستقلال نهائيًا عن السلطنة. فدخل بشير من جرّاء ذلك في مرحلة حرجة جدًا لأن والي مصر بدأ يطالبه بالوفاء بالتزاماته التي تعهد بها عندما لجأ اليه في الماضي.

– المرحلة الرابعة: الوجود المصري في لبنان (1831–1840)

لقد مرّ معنا في السابق أن الأمير قد اضطر للهرب إلى مصر سنة 1822. وأثناء وجوده هناك عقد معاهدة بينه وبين محمد علي باشا واتفقا بموجبها على العمل المشترك للتحرر من العثمانيين. وعلى هذا الأساس ساعد والي مصر حليفه للعودة إلى حكم إمارة الجبل بعد الحصول على العفو له عند السلطان.

استحقت حسابات الأمير الناجمة عن ارتباطاته السياسية الخارجية ضد السلطنة عندما قرر محمد علي سنة 1831 توجيه حملة على سوريا ولبنان وفلسطين للاستقلال عن السلطنة. وهنا بدأت مرحلة جديدة من المتاعب والمآسي في حياة الأمير، وبانتهائها قضي على حياته السياسية، وتلاشي نظام الامارة في لبنان.

• المصريون في لبنان

عرف عن "العزيز" اهتمامه برفع مستوى رعيته وانفتاحه على الغرب وحضارته، وقد سار ابنه إبراهيم[24] على خطاه، وسعى من أجل احقاق العدل بين الناس. أما من جهة الحكم[25] فقد جعل نفسه الحاكم الاداري والعسكري لبرّ الشام. لكن بعد أن وجد اهتماماته ومشاغله تتزايد يومًا بعد يوم، عيّن الأمير مساعدًا له، وخوّله حق توقيع القرارات والمعاملات التي يفترض بالباشا أن يوقّعها شخصيًا، ثم عرض عليه تعيينه حاكمًا عامًا على تلك المنطقة فاعتذر. فعيّن في هذا المنصب محمد شريف بك كتخدا "العزيز" وحاكم الصعيد، وقسم بلاد الشام إلى أربع مديريات: حلب، دمشق، طرابلس، وصيدا، وعيّن على رأس كل منها مديرًا. وعيّن يوحنا البحري حكمدارا على دمشق ومديرًا عامًا لماليتها، ومشرفًا على مالية برّ الشام بكامله. أما لبنان فقد ظلّ مستقلًا عن هذه المديريات، ومرتبطًا مباشرة "بالعزيز".

وفيما يتعلق بالأجانب التابعين لسلطته فقد عيّن لتنظيم شؤونهم شخصًا أوروبيًا يدعى الكولونيل "Sesèrves" الذي أصبح اسمه سليمان باشا الفرنساوي.

أما الأمير بشير[26] فقد احتل مكانة رفيعة لدى محمد علي وابنه إبراهيم، وأصبح كل صاحب حاجة لدى الفاتح المصري يتوسل شفاعة بشير الذي لا ترد وساطته. وقد أخلص الأمير[27] بدوره لمحمد علي على الرغم من تردده سابقًا في السير في ركبه، وعمل معه بوحي الاتفاق الذي بينهما.

وأثناء الوجود المصري في لبنان درج الأمير على معاملة إبراهيم باشا وكبار معاونيه وقادته بكل تقدير واحترام، وسار في ذلك على بروتوكول[28] محدّد تقريبًا. وقد اضطر الأمير نتيجة هذا البروتوكول أن يتخلّى عن كثير من مظاهر الأبهة والعظمة مجاراة لبساطة إبراهيم وتواضعه، وأن يضحي بكثير من ملابسه الفضفاضة وعمامته الكبيرة، فأحسّ– كما يقول غيز– انه فقد ثلثي سلطته ونفوذه وهيبته.

• واقع الأمير في ظل الفتح المصري

لقد ذكرنا أن الأمير قد بدأ يفقد بعض مظاهر سلطته واستقلاله منذ حلول المصريين في إمارته، لكنه في الحقيقة استفاد من نواح أخرى، وصار أكثر قوة وأرفع مكانة، واستراح من وصاية الولاة عليه. فما كان يهمّ إبراهيم باشا هو أن يؤدي له بشير ما يتوجب عليه من أموال ورجال، وما عدا ذلك فقد أطلق له الحرية التامة، مما أتاح له جمع مقادير كبيرة من المال دون أية رقابة، مستغلا الحماية[29] العسكرية المصرية له، لأن الجيش المصري لم يترك مجالًا لنشوب حركات الفتن والفوضى في الجبل، وبالتالي لم يتجرأ الأهالي على التمنع عن دفع الضرائب المترتبة عليهم، أو التي تفرض عليهم بشكل غير قانوني.

• الثورة الدرزية

أحسّ "العزيز"[30] بأن خطر المواجهة العسكرية مع المصريين أمر وارد في أية لحظة. لذا فقد طلب من ابنه إبراهيم الاستعداد لكل احتمال، وشدّد على ضرورة شمول الخدمة الاجبارية جميع مناطق برّ الشام دون تمييز، وكلّف محمد شريف باشا بالتنفيذ. فما كان من هذا الأخير إلاّ أن لجأ إلى القوة في تنفيذ مشيئة سيده. ففي أواخر صيف 1837 استدعى إليه يحيى الحمدان شيخ مشايخ حوران للبحث معه في قضية التجنيد. وعندما استرحمه هذا الأخير بوقف التنفيذ مقابل دفع بدلات تعويضية ضخمة، ثارت ثائرة شريف باشا وصفعه بحضور أعضاء مجلس دمشق. وتقبّل الشيخ المذكور الإهانة مكرهًا، وعاد إلى بلاده فأخبر وجهاءها بما جرى، فثاروا وجمعوا جموعهم وأنصارهم، وهاجموا فجأة القوى العائدة للحكمدار شريف باشا وبحرى بك، فنهبوا خيراتها بعد أن قتلوا وكلاءها. وعندما أرسل الحكمدار قوة لتأديبهم انقضوا عليها وشتتوا شملها. وبعد ذلك قرر الدروز[31] القيام إلى اللجاة والاعتصام فيها إلى أن يزول حكم المصريين، واتخذوا هذا الموقف بناءً على نصيحة كبير شيوخ العقل، وبتنسيق مع دروز لبنان، ذلك لأن هذه المدينة صعبة المسالك. قرّر الحكمدار تأديب الدروز فوجّه إليهم حملة في أوائل سنة 1838 واشتبكت معهم في بصرى الحرير وسوميدا وتمكن من تشتيت شملهم في منتصف شهر كانون الثاني بعد أن

تكبّد خسائر فادحة، وقتل قائد الحملة. وبعد ذلك انضم إلى دروز حوران اخوانهم في لبنان. وفي الحادي والعشرين من الشهر المذكور انطلقت حملة عسكرية مصرية إلى حوران من حماة وانطاكية وحلب بقيادة الحكمدار، ثم لحقت بها نجدة من مصر في 6 و10 شباط، فمنيت هذه الحملة بالفشل وتكبّدت خسائر فادحة في الأرواح والعتاد. فما كان من الحكمدار الا أن أخبر "العزيز" بما حصل، ورفع إلى المسؤولين المصريين لوائح بالقتلى والجرحى والأسرى من قواته الذين تجاوزوا الآلاف، واقترح على "العزيز" حلّ مسألة الدروز عن طريق المفاوضات حتى يحين فصل الصيف، ويسيطر الجفاف في حوران، مما يجعل الحرب على سكانه أمرًا صعبًا، فيسهل عليه عند ذلك احتلال المنطقة.

حاول إبراهيم تجريد حملة على وادي التيم، وحصلت عدة مناوشات، تراجع بعدها الدروز إلى وادي بكّا حيث لحقت بهم العساكر المصرية، وقد تمكن الثوار بقيادة حسن جنبلاط وناصر الدين العماد من المقاومة حتى نفذت الذخيرة، عند ذلك نشبت معركة رهيبة بالسلاح الأبيض تطايرت فيها الرؤوس وتقطعت الأعضاء والأوصال، وقد قتل فيها العماد، بينما هرب جنبلاط مع بعض أنصاره إلى شبعا.

عند ذلك عزم إبراهيم على التوجه إلى جدهم في جبل الشيخ للقضاء على العربان، الا أن الدبس أفشى السرّ إلى العربان الذي تمكن من ردّ الحملة ساعة وصولها إليه، كما تمكن من صدّ حملة أخرى جاءت بقيادة الأمير خليل. غير أن إبراهيم باشا ظل مسيطرًا على شبعا، وتمكن من دحر القوات الدرزية عنها، وكلّف الدبس مفاوضة الدروز في جلعم بالاستسلام، فقبلوا وساطته بمن فيهم شبلي العربان الذي عيّنه الفاتح المصري رئيسًا على خمسمائة خيّال غير نظامي. وبعد ذلك طلب من الدبس أيضًا مفاوضة دروز اللجاة في حوران بالاستسلام مقابل العفو عنهم، فتوجه هذا الأخير إلى تلك المدينة فورًا، واجتمع بالشيخ يحيى الحمدان. فوافق زعماء الدروز على ذلك وتوجّه وفد منهم مؤلف من أربعين شيخًا برفقة الدبس إلى مقر الحكمدار المصري في القاهرة، حيث قدموا له الطاعة، وسلموه أسلحتهم وبعض الأسلحة التي غنموها من الجيش المصري. هذا وكان بشير قد نصحهم بذلك في السابق. وتجدر الإشارة[32] أيضًا إلى أن الإنكليز كانوا في جميع فترات الحكم المصري يساندون الدروز.

• الثورة اللبنانية الشاملة

لم يكد المصريون يخمدون الثورة الدرزية حتى نشبت في لبنان ثورة[33] شعبية شاملة اشترك فيها اللبنانيون من جميع الطوائف في سنة 1840، وأخذ محمد علي يشعر بحراجة موقفه في لبنان بعد حصول مفاوضات بين الدروز والمسيحيين ضده. وقد ساهم الإنكليز[34] في التحريض ضد المصريين في الأوساط الشعبية المختلفة، متّخذين التبشير وسيلة أساسية لتنفيذ مآربهم. لكن اللبنانيين ظلوا محافظين على ولائهم للأمير على الرغم من تحالفه مع المصريين، وبرّروا أسباب ثورتهم في رسالة[35] رفعوها إلى الأمير أمين، وأظهروا له فيها مظالم محمد علي، وضرائبه

المتزايدة على الرغم من إخلاصهم لبشير طوال حكمه. وبعد أن أخذ إبراهيم باشا يجردهم من أسلحتهم، صاروا يشعرون بالمرارة وخيبة الأمل، خاصة بعد لجوء جنوده إلى تعذيب النساء بغية الإسراع في جمع الضرائب. يضاف إلى ذلك أنه أرغمهم على العمل المضني بالقوة لاستخراج الفحم الحجري، وتقديم كل ما يلزم هذه العملية. وتجدر الإشارة[36] إلى أنه بعد ترويج الإشاعات المذكورة، أنشئت في لبنان ثلاثة جيوش: الأول قرب بيروت، والثاني قرب طرابلس، والثالث قرب زحلة. واعتمد المجندون في هذه الجيوش على السلب والنهب لتأمين موارد رزقهم ووسائل تموينهم. وقد هاجم جيش زغرتا – إهدن طرابلس مرتين، وأوقع بالجنود المصريين المتمركزين فيها خسائر فادحة.

- **وقائع الثورة اللبنانية ومراحلها**

تجلّت المعارضة اللبنانية بالجمعية التي أنشئت للدفاع عن لبنان، وضمّت أعضاء من جميع الطوائف، واتفقوا على أربعة مبادئ:

1- الامتناع عن تقديم الأسلحة التي وزعت سنة 1838 ما لم يرجع "العزيز" الأسلحة التي أخذها من لبنان سنة 1835.

2- عدم الإذعان لأي تجنيد جديد.

3- الامتناع عن تسليم أي شخص يلجأ إلى لبنان حتى ولو كان فارًا من الجيش.

4- إنشاء صندوق عام للدفاع عن لبنان.

إزاء الإصرار المصري على جمع الأسلحة تنادى شباب دير القمر إلى حمل السلاح، وعقدوا اجتماعًا تمثّل فيه الدروز والمسيحيون وذلك في خلوة دير القمر[37] في 27 أيار 1840، وبثّوا فيه الدعوة للعصيان على الرغم من حرصهم على عدم قطع الصلة بالأمير.

أخذت نيران الحرب[38] الأهلية تمتد من منطقة إلى أخرى، وقد انضم إلى الثوار بعض الأمراء الشهابيين واللمعيين وبعض المشايخ ورجال الإقطاع من آل الخازن وحرفوش والخوري، بالإضافة إلى بعض الفرسان الأشداء أمثال: أبو سمرا غانم ويوسف الشنتيري. وقد انتخب الثوّار رئيسًا لهم الشيخ فرنسيس أبا نادر الخازن الذي اتخذ لنفسه لقب سرّ عسكر النصارى، وعمدوا إلى قطع الطرق على العساكر المصرية في مختلف المناطق: صيدا، طرابلس، الحازمية، الدكوانة، البقاع... كما هاجموا بيروت التي صدّهم الأرناؤط عنها وهذا ما أقلق بال المصريين وحليفهم بشير الذي حاول استثارة حماسة حلفائه من اللمعيين وغيرهم فلم ينجح. وفي الثاني من حزيران كتب إليه إبراهيم باشا طالبًا منه معاملة الثوّار بالحسنى خوفًا من التدخل الخارجي، وفي الثامن من الشهر المذكور كتب "العزيز" وابنه إبراهيم إلى الأمير بأنهما عدلا عن تجنيد اللبنانيين وعن المطالبة بالأسلحة، فأبلغ الأمير البشرى إلى الأعيان بواسطة ابنه أمين الذي توجّه في الحادي عشر من حزيران إلى سن الفيل مقر رجالات الثورة، واستدعى إليه سر عسكر النصارى فلم يحضر، وحاول استمالة غيره من القادة ففشل وعاد خائبًا إلى بتدين حيث أبلغ والده بتصلّب الثوّار، وأخبره بتدخل بعض رجال السلك الدبلوماسي في التحريض على الثورة والعصيان[39]. كما أكّد

له أن أوروبيًا اتصل بهم في التاسع من حزيران، ووعدهم بوصول سفينة محملة بالأسلحة إليهم. كما ذكر له أن الأمير ملحم شهاب أخبره بوجود عناصر أجنبية مسلّحة في كسروان. يضاف إلى ذلك أن قنصل فرنسا في بيروت المسيو بورّيه أظهر حماسة بالغة لمصلحة الثوار[40].

- **عامية أنطلياس**

عقد أعيان الدروز والنصارى في السابع من حزيران 1840 عامية جديدة على غرار عامية دير القمر في كنيسة مار الياس – انطلياس[41]، وأقسموا اليمين على مذبحها بشهادة الخوري اسبيريدون العرموني على أن يظلّوا يدًا واحدة من أجل الاستقلال. وأدى نجاح الاجتماع المذكور إلى جعل الشباب الثائرين يلتهبون حماسة، وانصرفوا إلى القيام بالمناوشات والتخريب في مختلف مناطق الإمارة الشهابية. وقد اشتد اندلاع الثورة في منتصف حزيران وبدأ تدخّل الدول الأوروبية في "المسألة الشرقية". هذا في وقت كان فيه "العزيز" يؤكد لبشير أنه سيضرب العصاة، ويجرّدهم من أسلحتهم، وبالفعل فقد توجه القائد المصري عثمان[42] نور الدين باشا بعساكره إلى بعلبك، في 24 حزيران حيث اشتبك في اليوم التالي مع الثوار في الفرزل ففشل. ثم هاجمه الثوار من مكان يدعى ترحيم بجوار زحلة فسجّل عليهم انتصارًا كبيرًا. وفي 30 حزيران وصلت قوة إضافية من مصر بقيادة عباس حفيد محمد علي، وفي السادس من تموز حصل اشتباك بجوار صيدا، فهزم المصريون ثم حصلت حوادث مماثلة في بيروت وضهر البيدر، وبعد وقت قصير كان معظم الأمراء قد عادوا للخضوع إلى الأمير، ولم يبقَ خارجًا عن طاعته سوى "جمهور الساحل" الذي يتزعّم أعضاؤه الثورة، فتمكن من تشتيت شملهم، وانتقم من بعض الأمراء خصومه. عند ذلك قام الأمير خليل إلى كسروان، وبدأ يجمع الأسلحة بكل تشدّد وقساوة وأساء معاملة خصوم والده، وتمكن من القبض على الشيخ نقولا الخازن. أما سر عسكر النصارى فقد هرب إلى قبرص وتبعه بعض الخوازنة. وبعد أن تخلّص الأمير من معظم زعماء المعارضة وافق على نفي أربعة أمراء شهابيين إلى سنار وثلاثة لمعيين إلى مصر، وثلاثة مشايخ نكديين إلى مصر وذلك لاشتراكهم في التحريض على العصيان. وقد نفى أيضًا إلى الإسكندرية الشيخ نقولا الخازن بصحبة ستة وأربعين عاميًا.

غير أن هذه الانتصارات[43] التي حقّقها بشير وحلفاؤه لم تتمكن من إطفاء نار الثورة، لأن النقمة الشعبية قد بلغت حدّها الأقصى بسبب الأوضاع المتردية والمظالم المختلفة، وبسبب استمرار التحريض من قبل الأجانب بمختلف الوسائل، يضاف إلى ذلك الأسلوب السيء الذي اتبعه المصريون لإخماد الفتنة، إذ لجأوا إلى القوة بدلًا من اللين والحكمة والتفاهم.

كما يمكن أن نذكر هنا أن اللحمة القوية التي ظهرت بين أبناء طوائف الجبل خاصة بعد انضمام شيعة[44] كسروان إلى الموارنة في كسروان ضد التحالف المصري – الشهابي كانت عاملًا مهمًا من عوامل انهيار الوجود المصري وسلطة بشير.

ولعلّ التطرّق ببعض التفصيل إلى دور الأجانب[45] يلقي ببعض الأضواء على حقيقة الثورة اللبنانية. من ذلك أن أحد المرسلين الفرنسيين يدعى الكونت (onfroy) أخذ يحرّض الثائرين، وعندما وصلت باخرة محمّلة بالأسلحة من قبرص إلى جونية أشرف هو على تفريغها، بالإضافة إلى توزيعه الأموال الطائلة على الثوّار. وعندما علم السفير الفرنسي في بيروت "bourrée" بنشاطات الكونت المعادية لمحمد علي صديق بلاده، استدعاه إليه مستوضحًا منه حقيقة ما جرى، فأنكر كل شيء. هذا مع العلم أنه اقترح على سر عسكر النصارى الشيخ فرنسيس الخازن بالزحف على رأس قواته إلى بيت الدين لإجبار الأمير على اتخاذ موقف صريح لمصلحتهم، لكنه لم يتجرأ على الإقدام وتحدي سيد بيت الدين. تجدر الإشارة في هذا المجال أيضًا إلى انه عقدت خلوة سرية بين bourrée والأمير بشير بحضور راهب يسوعي ليقوم بدور المترجم[46].

• القضاء على بشير والمصريين

منذ بدء أعمال الثورة كتب الأميرال[47] القائد العام للأسطول الإنكليزي إلى بشير داعيًا إياه إلى تسليم نفسه طوعًا للسلطنة مقابل جعل حكم امارة الجبل وراثيًّا لذريته من بعده. فأهمل الأمير هذا العرض بحجة أن أولاده وأحفاده موزعون في صفوف الجيش المصري، وبالتالي فانه يخشى أن يصابوا بسوء إذا ما انقلب على حلفائه. لكن يبدو أن السبب الحقيقي لموقف بشير هذا هو انخداعه بمقدرة الفرنسيين العسكريين على التدخل مباشرة لمساعدة "العزيز" لكن بشيرًا عاد فعدل عن رأيه، وأبلغ الأميرال أنه مستعد للانضمام إلى السلطة شرط ابقائه في السلطة النهائي في 8 تشرين الأول، لكنه لم يقبل بمبدأ اعطائه الضمانة الدولية. وفي 3 أيلول 1840 وجّه الأميرال الإنكليزي ريتشارد وود رسالة إلى بشير يطلب منه العودة إلى طاعة السلطنة مقابل جعل حكمه وراثيًّا. لكن يبدو أن الرسالة لم تصل إلى الأمير. وفي 7 أيلول جاء مركب تركي من القسطنطينية إلى قبرص وعلى متنه برقيات من سفير بريطانيا في الاستانة إلى Napier وبينها ترجمة للفرمان[48] الذي صدر بتعيين أحد أحفاد شقيق الأمير بشير حاكمًا على لبنان باسم بشير الثالث[49].

في هذه الأثناء انتهت المهلة المعطاة للأمير، وأعلن تنصيب بشير الثالث مكانه. فما كان من الأمير المعزول إلا أن جمع أمواله وأوراقه ومستنداته الخاصة والأشياء الثمينة، وقرّر الذهاب إلى صيدا للإستسلام، وكان ذلك بحضور حنا البحري الذي ما ان تبلغ قرار الأمير هذا حتى ذهب إلى عين زحلتا حيث التقى هناك إبراهيم باشا، الذي كان قادمًا إلى بيت الدين للاجتماع بالأمير. وعندما علم بما حصل عاد مع البحري إلى البقاع في 11 تشرين الأول. وعن طريق البقاع عاد إبراهيم إلى بلاده. أما الأمير فنفي إلى مالطا ومنها إلى الاستانة.

– الأمير في المنفى

رضخ بشير[50] للأمر الواقع، وبدأ يحزم أمتعته الضرورية والثمينة استعدادًا للسفر، وذلك بحضور حنا البحري الذي حاول أن يثنيه عن عزمه فلم يقبل، وانما أصرّ على موقفه مبلغًا إياه ان لا أمل من المقاومة والبقاء في لبنان، وأخذ يحمّل البغال الحوائج

التي أراد أخذها معه إلى منفاه. عند ذلك تركه البحري متوجهًا إلى زحله للإلتحاق بسيده إبراهيم باشا الذي كان قادمًا إلى بيت الدين ليبلغ الأمير أمرًا تلقاه من والده يقضي بالانسحاب فورًا من الإمارة اللبنانية، لأنه قد جرى اتفاق بين الانكليز والسلطان من جهة ومحمد علي من جهة ثانية، تعيّن بموجبه أن تبقى ولاية القطر المصري مع ملحقاته بشكل وراثي تحت حكم محمد علي.

نهض الأمير بشير من بتدين في العاشر من تشرين الأول سنة 1840 بمعية زوجته وأولاده الثلاثة وحفيده سعد وبطرس كرامة وحاشية كبيرة، وقد حمل معه المثمنات والكنوز والأموال. وقرّر أن يستسلم إلى الإنكليز والسلطنة، لكن بعد أن انتهت المدة التي أعطاه إياها الأميرال الإنكليزي ريتشارد وود ليسلم خلالها، مقابل الاحتفاظ بحكم لبنان وراثيًّا، وأضاع من يده بالتالي فرصة العمر. وقـد بلغت محتويات الخزنة التي حملها 18 ألف كيس من النقود الذهبية. وما ان علم أهل دير القمر وبعقلين بمغادرة الأمير لقصره، حتى ذهبوا مسرعين إلى بتدين، وانكبّوا على ما تركه بشير في السرايا من أسلحة ومآكل وأمتعة دون أن يردعهم وجود اللجنة التي كلفها الأمير بالإشراف على القصر طيلة فترة غيابه.

– الخاتمة

إن هذه الدراسة التي تمحورت حول حكم الأمير بشير وكيفية إدارته لسياسة الجبل، جسّدت حقيقة مهمة من تاريخ الإمارة الشهابية خاصة وتاريخ جبل لبنان عامة. وقد اكتسب بشير الشهابي هالة لدى الشعب ولدى بعض ولاة السلطنة، إذ كانوا يتسابقون على التحالف معه لخدمتهم ضد أمير آخر، وهذا ما جعل حكمه أسير صراعات محلية وإقليمية ودولية، فتعرّض لمؤامرات داخلية، منها عاميتا انطلياس ولحفد، وعامية انطلياس الأولى وعامية دير القمر، وعامية انطلياس الثانية التي انتهت بحكم المصريين وحليفهم الأمير بشير ما جعل مستقبل الإمارة يترنح تحت ضغط المؤامرات الدولية، بالإضافة إلى تحريض العثمانيين للثورة ضد الحكم الشهابي لدى مختلف الأطراف المعارضة، وهذا ما أدى إلى انسحاب المصريين من لبنان وتنازل بشير عن السلطة، ليذهب إلى المنفى مع عائلته وحاشيته إلى جزيرة مالطه أولًا، والأستانة ثانيًّا، ليقضي فترة من النسيان والإهمال. وظلّ على هذه الحال إلى أن توفي سنة 1850 في استانبول، ونقلت رفاته إلى قصر بيت الدين سنة 1947. وبعد رحيله دخل الجبل في مرحلة خطيرة من الاضطرابات والقلاقل تتوجت بأحداث 1860 المشؤومة.

***

الهوامش

• أستاذة جامعية، وباحثة في تاريخ لبنان الحديث والمعاصر

[1] عيسى اسكندر المعلوف وسليم الدحداح، "تنصّر الأمراء الشهابيين واللمعيين في لبنان"، مجلة المشرق، ع18، 7 تموز 1920، ص 548 – 549.

[2] نجيب أفندي باخوس الغزيري، "غزير" المشرق، السنة الثالثة، ع الخامس، شهر آذار 1900، ص 208 – 218.

[3] لحد خاطر، بين أمير وراهب، جامعة الروح القدس – الكسليك، جونية 1970، ص 15 – 17

[4] شاكر الخوري، مجمع المسرات، نشره يوسف غنام تابت، مطبعة الإجتهاد، 1908، ص 29.

[5] **فرحات العازوري:** هو أحد مربّي أولاد الأمير بشير في بيت الدين، وقد رافقه أيضًا إلى المنفى، وهو الذي قصّ الرواية على شاكر الخوري حول طفولة الأمير وشبابه.

[6] لحد خاطر، ص 45 – 46. وجرجس صفا نعمة، أسرار الأمير في بيت الدين، مجلة "الكلية"، المجلد 18، ع تشرين الثاني، 1931، ص 19

[7] جرجس صفا نعمة، م. س.، ص 35.

[8] عيسى اسكندر المعلوف، تاريخ الأمير بشير الشهابي الكبير المعروف بالمالطي، طبعة زحلة الفتاة، زحلة 1914، ص 13.

[9] شاكر الخوري، ص 293

[10] الخوري بطرس صفير، ج2، ص 33-35

[11] المعلوف، ص 16 – 18. ويؤكد حيدر شهاب (الجزء الأول، ص 147) دعوة الأمير يوسف زعماء البلاد لإختيار أمير شهابي آخر مكانه.

[12] المعلوف، ص 19 – 20

[13] Michel Chibli: Une histoire du Liban à l'Epoque des Amirs Chehabs (1635 – 1841), Beyrouth 1955. Page: 205 – 207

[14] Alphonse Lamartine, Impressios, Pensées, Paysage Pendant un voyqge en Orient, Tome I, Librairie de Jean Sheible, 1835.

[15] أسد رستم، بشير بين السلطان والعزيز (1804-1841)، منشورات الجامعة البنانية، ج 1، بيروت 1966، ص 2

[16] الأمير حيدر الشهابي، لبنان في عهد الأمراء الشهابيين، اشراف وتدقيق أسد رستم وفؤاد افرام البستاني، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت 1969، ص 147، 160

[17] حيدر شهاب، ج 1، ص 177 – 179

[18] حيدر شهاب، ج 1، ص 177-179

[19] حيدر شهاب، ج 1، ص 500، 518، و ج3، ص 541، 552، 556

[20] حيدر شهاب، ج3، ص 670، 684 – 690. ويؤكد روفائيل كرامه "مصادر تاريخية"، ص 56، ورستم باز في مذكراته، ص 17 – 18 ما جاء عند حيدر شهاب.

[21] حيدر شهاب، ج3، ص 670- 684

[22] حيدر شهاب، ج 3، ص 728-733

[23] حيدر شهاب، ج 3، الملحق، ص 820-822. ويؤكد هنري غيز، ترجمة عبود، ص 91-92، والدبس، ص 641-645، مضمون ما ورد عند حيدر شهاب.

[24] رستم باز، ص 36-37

[25] أسد رستم، ج 1، ص 97-108. ويؤكد ذلك أيضًا حيدر شهاب، ج 3، ص 846- 872 (ملحق)، مع اعطاء بعض التفاصيل.

[26] رستم باز، ص37 هامش. ويؤكد ذلك أيضًا أسد رستم، ج 2، ص 126-127 مع إعطاء بعض التفاصيل.

[27] غيز، ترجمة عبود، ج 2، ص 94- 96

[28] لحد خاطر، العادات والتقاليد، ج 2، ص 33، 103، 105. ويؤكد ذلك غيز، ص 126- 127.

[29] Perrier, 349-355 – perrier 350 -354

[30] أسد رستم، ج 2، ص 136-145

[31] رستم باز، ص 32-35

[32] فيز، ترجمة عبود، ج 2، ص 239

[33] مزهر، ج 1، ص 494

[34] فيز، ترجمة عبود، ص 230

[35] فيز، ترجمة عبود، ج 2، ص 183 – 187

[36] بطرس صفير، ص 65 – 68

[37] مزهر، ج 1، ص 494 – ورد في التقارير المرسلة من بيروت إلى وزارة الخارجية الفرنسية في التواريخ التالية: 7 و20 شباط، 27 و30 أيار، 2 و12 حزيران 1840، معلومات مشابهة لما ورد عند مزهر.

[38] Perrier, Page 378 – 379

[39] الدبلوماسيون الذين أشار إليهم: قنصل سردينيا، ترجمان قنصل النمسا، ترجمان قنصل الإنكليز

[40] الشدياق، ص 240 – 241

[41] مزهر، ج 1، ص 494 – 512 – ويؤكد ذلك أيضاً أسد رستم، ج 2، ص 180.

[42] Perrier, p. 380 – 384 – إن التقارير الموجودة في أرشيف وزارة الخارجية، والمرسلة من بيروت في التواريخ التالية: 3 – 7 – 9 – 13 – 17 تموز 1840 تؤكّد مضمون ذلك.

[43] Achille Lauront P. 187. إن التقارير المرسلة في التواريخ التالية: 21 – 27 – 30 أيار و3 – 9 – 13 – 17 تموز 1840 تعطي بعض التفاصيل عن الثورة اللبنانية ضد المصريين.

[44] أسد رستم، ج 2، ص 200 – 211

[45] Perrier p. 374 – 387 ومعلوماته تنطبق على: Achille Laurent p. 187 – هذا الكونت سكن في عينطورة بحجة تعلّم العربية مع صديق له: L. de Chezelles

[46] يوجد في الجزء الأول من أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية، ص 144 تقرير يحمل الرقم 49 يفيد بان قنصل فرنسا Bourrée قد ذهب إلى عينطوره شخصيًّا لمراقبة الوضع (التقرير من دون تاريخ) يضاف إلى ذلك تقرير بتاريخ 14 آب يشير إلى رسائل متبادلة بين قنصلي فرنسا وبريطانيا والقيادة الانكليزية لدراسة الوضع في لبنان.

[47] أسد رستم، ج 2، ص 206- ويؤكد ذلك رستم باز، ص 35 - 36

[48] رستم، ج 2، ص 206

[49] Achille p 135-137. نص الكتاب أو الفرمان في الملحق

[50] الشدياق، 242-245. لقد أورد أسد رستم، الجزء الثاني ص 204- 211، بعض التفاصيل حول هذه الناحية أيضًا.

***

• مكتبة البحث

- المراجع العربية والمعرّبة:

1- أبو صالح، عباس، التاريخ السياسي للإمارة الشهابية في جبل لبنان 1697 – 1842، دار عودة، بيروت 1984.

2- باز، رستم، مذكرات، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت 1968.

3- الترك، نقولا، ديوان، الجامعة اللبنانية، بيروت 1960.

4- الحكيم، يوسف، بيروت ولبنان في عهد آل عثمان، دار النهار، بيروت 1980.

5- الحكيم، يوسف، سوريا والعهد العثماني، دار النهار، بيروت 1980.

6- الخازن ومسعد (نسيب وهيبة الخازن وبولس مسعد) الأصول التاريخية، عشقوت 1956.

7- خاطر، لحد، بين أمير وراهب، جامعة الروح القدس – الكسليك، جونية 1970

8- الخوري، شاكر، مجمع المسرات، مطبعة الإجتهاد، بيروت 1908.

9- الدبس، يوسف، تاريخ سوريا، المطبعة العمومية، بيروت 1905، منشورات دار نظير عبود، جونية 1995 – راجعه ودقّقه الدكتور مارون رعد.

10- رستم، أسد، الأصول العربية لتاريخ سوريا في عهد محمد علي، الجامعة الأميركية، بيروت 1930

11- رستم، أسد، آراء وأبحاث، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت 1967.

12- رستم، أسد، بشير بن السلطان والعزيز (1804-1841)، الجامعة اللبنانية، بيروت 1966.

13- رستم، أسد، بيان بوثائق الشام وما يساعد على فهمها، المطبعة الأميركية، بيروت 1940

14- رعد، مارون، بلاط الأمير بشير الثاني، مؤسسة جوكر، بيروت 1986.

15- الزين، علي، العادات والتقاليد في العهود الإقطاعية، دار الكتاب اللبناني (بيروت) دار الكتاب المصري (القاهرة)، 1977.

16- الشدياق، طنوس، أخبار الأعيان في جبل لبنان (جزءان)، دار نظير عبود، حققه الدكتور مارون رعد، 1993.

17- الشهابي، حيدر أحمد، تاريخ الأمير حيدر أحمد الشهابي، 4 أجزاء، دار نظير عبود، راجعه وأعاد تبويبه وعلّق على حواشيه الدكتور مارون رعد، 1993.

18- الشهابي، الأمير حيدر، لبنان في عهد الأمراء الشهابيين، اشراف وتدقيق أسد رستم وفؤاد افرام البستاني، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت 1969

19- الصليبي، كمال، تاريخ لبنان الحديث، دار النهار، بيروت 1967.

20- غيز، هنري، بيروت ولبنان منذ قرن ونصف القرن، ترجمة مارون عبود، دار المكشوف، بيروت 1969.

21- كرامة، بطرس، سجع الحمامة أو ديوان بطرس كرامة، المطبعة الأدبية، بيروت 1898.

22- كرامة، روفائيل، مصادر تاريخية لحوادث سوريا ولبنان، المطبعة الكاثوليكية، بيروت 1929.

23- كرامة، روفائيل، نزهة الزمان في حوادث سوريا ولبنان، المطبعة الكاثوليكية، بيروت 1919.

24- مزهر، يوسف، تاريخ لبنان العام، مطبعة الكريم، جونية 1936.

25- المعلوف، عيسى اسكندر، تاريخ الأمير بشير الشهابي الكبير المعروف بالمالطي، طبعة زحلة الفتاة، زحلة 1914.

26- اليازجي، ناصيف، الترانيم الروحية للكنائس الإنجيلية، مكتبة المشعل الإنجيلية الوطنية، بيروت 1965.

27- اليازجي، ناصيف، ديوان العلامة الشيخ ناصيف اليازجي، المطبعة الشرقية، بيروت 1904.

28- اليازجي، ناصيف، رسالة تاريخية في أحوال لبنان في العهد الإقطاعي، مطبعة حريصا، 1833.

29- يزبك، يوسف، مجلة أوراق لبنانية، دار الرائد، بيروت، 1984.

- المجلات والدوريات

- جرجس صفا نعمة، أسرار الأمير في بيت الدين، مجلة "الكلية"، المجلد 18، عدد تشرين الثاني، 1931

- شاكر الخوري، مجمع المسرات، نشره يوسف غنام تابت، مطبعة الإجتهاد، سنة 1908

- عيسى اسكندر المعلوف وسليم الدحداح، "تنصّر الأمراء الشهابيين واللمعيين في لبنان"، مجلة المشرق، السنة 1920، العدد 18.

- نجيب أفندي باخوس الغزيري، "غزير"، المشرق، السنة الثالثة، العدد الخامس، شهر آذار، سنة 1900.

- المراجع الأجنبية

1- Alphonse e Lamartine, Impressios, Pensées, Paysage Pendant un voyqge en Orient, Tome I, Librairie de Jean Sheible, 1835

2- Michel Chibli: Une histoire du Liban à l'Epoque des Amirs Chehabs (1635 – 1841), Beyrouth 1955

3- Chevalier, Dominique, la société du Mont Liban à l'epoque de la Révolution industrielle en Europe, Paris, 1971.

4- De Lamartine, Alphonse, souvenir, Impression, Pensées, ewt Paysages pendant un voyage en Orient (1832 – 1833), Tome 1, Leipsig Stuttgart, Librairie de Jean Scheible, 1835.

5- Hichi, Sélim, La famille des Djoumblatt, Beyrouth 1974.

6- Laurent, Achille, Relations Historiques des affaires de Syrie, Paris 1846

7- Perrier, Ferdinand, La Syrie sous le gouvernement de Mehemet Ali, Paris 1842

***